

المصطلحات البلاغية في كتاب معاني القرآن للفراء (ت 207 هـ)

– وصف وتحليل –

الدكتور: نورالدين دريم بن محمد

جامعة الشلف- الجزائر

الملّخص

تعدّ قضية الإعجاز القرآني الموجّه الأكبر للبلاغة العربية، وتأتي هذه الدراسة لتؤكّد ذلك من خلال البحث في كتاب معاني القرآن للفراء، حيث سنحاول فيها تتبع المصطلحات البلاغية، التي تضمّنها هذا المؤلف في البدايات الأولى لنشأة البلاغة العربية، حين حاول أن يقارن الأساليب القرآنية بكلام العرب من جهة التركيب ليعلّل تميّزها عن الكلام المألوف ويبين مواطن الإعجاز فيها.

Abstract

The study of the Qur'anic meanings of the Quran is an attempt to follow the rhetorical terms that this author has included in the early beginnings of the Arabic rhetoric, when he tried to compare the Qur'anic styles of the Arabic words on the one hand The structure to explain its distinction from the familiar words and shows the miracles in it.

مقدمة

ولدت قضية الإعجاز القرآني لدى علماء التراث العربي عناية منقطعة النظير بمباحث البلاغة؛ لأنّها مثّلت السبيل الأمثل – في نظرهم- للوقوف على مواضع الإعجاز في النص القرآني، ومن ثمة الكشف عنها من وجوه عدّة (لغوية، ونحوية، وصرفية...)، حتّى غدت قضية الإعجاز القرآني الموجّه الأكبر للبلاغة العربية، في مختلف أطوارها: نشأة، ونمو وتطوّر، واكتمالاً؛ فهي السبب المباشر والدافع المعنوي لجمع كلام العرب، و" حفظه وتدوينه، وتفسيره، ودراسة أساليب القرآن الكريم البيانية، ومقابلتها بأساليب البلغاء، ثمّ استخلاص عناصر الجودة في الأولى، ومواضع التقصير في الثانية؛ ليظهر

امتياز القرآن الكريم على كلام الفصحاء الذين استوت لديهم ملكة البيان، ومن أجل خدمتها خاضوا في مسائل البلاغة كالقول في المجاز، وبيان مكانته في التعبير الفني الجميل، والتشبيه والتعمق فيه، والإيجاز والإطناب والالتفات، وبيان الميزة البلاغية وأين تكمن"¹.

لذلك عدّ القرآن الكريم من العوامل الرئيسية التي ساعدت على انطلاق الدراسات البلاغية، وكانت البحوث التي أقيمت حوله خميرة صالحة لبروز مثل هذا التفكير²، فلاححت إلى الأفق إرهاسات التأسيس للبحث البلاغي لدى العرب.

وقد حثّ غير عالم على تعلّم فنون البلاغة، ومكاشفة مباحثها، خاصة إذا ارتبطت الدراسة بإعجاز القرآن، وبيان وجوهه، يقول أبو هلال العسكري "إنّ أحق العلوم بالتعلم وأولاهما بالتحقّظ، بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحقّ، الهادي إلى سبيل الرشاد، المدلول به على صدق الرسالة، وصحة النبوة، التي رفعت أعلام الحقّ، وأقامت منار الدين، وأزالت شبه الكفّار ببراهينها، وهتكت حجب الشكّ بيقينها"³، فتكون البلاغة في هذا المنحى وسيلة لغاية، فالباحث في مواطن الإعجاز في النص القرآني من وجهة بلاغية، لابدّ له من المرور على جسر البلاغة؛ ليكشف عنها.

وغير بعيد عن هذا ما ذكره عبد القاهر الجرجاني، مبيناً مزايا علم البيان وفوائده، إذ يقول: "ثم إنّك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جنى، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً من علم البيان، الذي لولاه لم تر لساناً يحوكم الوشي ويصوغ الحلّى، ويلفظ الدرّ، وينفث السّحر، ويقري الشّهد، ويريك بدائع من الرّهر، ويجنيك الحلو اليناع من الثّمر، والذي لولا تحقّقه بالعلوم، وعنايته بها وتصويره إيّاها؛ لبقيت

قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عرفة، عالم الكتب، بيروت،
الطبعة الأولى، 1986، ص6.

ينظر: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمود، منشورات
الجامعة التونسية، تونس، دط، 1981، ص47.

كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار
إحياء الكتب العربية، سوريا، الطبعة الأولى، 1952، ص1.

كامنة مستورة ولما استنبت لها يد الدهر صورة، ولا ستمر السرار بأهلتها، واستولى الخفاء على جملتها إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء"¹.

من هنا وجهت هذه الدراسة لاستقراء مباحث البلاغة في كتاب من كتب معاني القرآن، هو كتاب معاني القرآن للفراء، وقد ركّزنا البحث فيه على المصطلحات البلاغية الواردة في الكتاب، وليبيان ذلك قامت هذه الدراسة على الإشكاليتين الآتيتين:

- ما منطلقات البحث البلاغي لدى الفراء، وما علاقة ذلك بالنص القرآني؟

- ما المصطلحات البلاغية التي تضمّنها كتاب معاني القرآن؟

وللإجابة عنهما، تطرقنا إلى معالجة مجموعة من المباحث رأيناها تمت بصلة للدراسة، وهي:

- السمات البلاغية في عصر الفراء.

- كتاب معاني القرآن.

- البحث البلاغي في كتاب معاني القرآن.

- المصطلحات البلاغية في كتاب معاني القرآن.

وقد اعتمدت في معالجة هذه القضايا على المنهج الوصفي، مستعينا بالتحليل في أغلب مواطن الدراسة، كما لم أغفل المنهج التاريخي في بعض مواضع البحث، واعتمدت على الاستقراء كآلية للكشف عن المصطلحات البلاغية الواردة في الكتاب، ومن ثمّ إحصائها فتصنيفها.

أولاً: السمات البلاغية في عصر أبي عبيدة والفراء.

إنّ تاريخ وفاة الفراء (ت 207هـ) يشير إلى أنّه عاش خلال العصر العباسي (132هـ-656هـ)، وبالذات في الصدر الأول منه، وقد عدّ الدارسون هذا العصر (العباسي) أزهى عصور الحضارة الإسلامية في شتى المجالات، وبخاصة المجال اللغوي بمختلف فروعها، حتّى سمّاه النقاد "العصر الذهبي"؛ لأنّ رقعة الدولة الإسلامية اتّسعت، والأجناس غير العربية (الفرس، الهند،...) بالعرب اختلطت، وفيه التيارات الفكرية انتشرت، وقد أثّرت أيّما تأثير على توجهات الدرس البلاغي، وأمّا الملاحظات البيانية في صدر هذا العصر فقد اتّسعت ودقّت "بحكم التعمّق في الحضارة، وفي الثقافات الأجنبية، وإتقان الموالي

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط،¹
دت، ص5-6.

للعربية إتقاننا جعلهم يكثرّون من ملاحظاتهم على خصائصها البلاغية. ومضى كتاب الدواوين ينهضون بكتابتهم ناثرين كثيرا من الآراء البيانية التي صدرت فيها عن ثقافتهم وأذواقهم الحضارية المهدّبة ومشاعرهم الدقيقة المرهفة... ونرى اللغويين والنحاة في تضاعيف تعليمهم للشباب الأصول اللغوية والنحوية ورواية الشعر القديم يعنون بالتعرض لبعض الخصائص الأسلوبية والبيانية¹.

وفيه نشطت حركة التأليف، وقد مسّ جزء أكبر منها وركّز جلّ اهتمامه على الدراسات التي خدمت القرآن الكريم، فظهرت مؤلفات اعتنت بلغته، وثانية اعتنت بتفسيره، وثالثة اعتنت بمجازه، ورابعة أولت عناية كبرى بنظمه ووجوه إعجازه... ويمكن أن تقسّم هذه الدراسات من وجهة بلاغية إلى أربعة اتجاهات، وهي "اتجاه الأدباء والنقاد والكتاب والرواة، واتجاه النحويين واللغويين، واتجاه دراسات الإعجاز القرآني، واتجاه الدراسات الفلسفية البلاغية"²، أما الفراء فينتهي إلى الاتجاه الثاني، الذي ضمّ علماء كثر - لغويين ونحويين - كانت غايتهم الاهتمام بالّنص القرآني، فهم وإن اختلفت مناهجهم في دراسته فهدفهم واحد مشترك؛ لأنهم حاولوا إبراز وجوه إعجازه من وجهة لغوية ونحوية، ومنهم أبو عبيدة (ت210هـ) في كتابه مجازه القرآن، و ابن فارس(ت395هـ) في كتابه الصاحب في فقه اللغة، وابن جني (ت392هـ) في كتابه الخصائص. وقد شكّلت المباحث اللغوية في مؤلفات أصحاب هذا الاتجاه نواة النظر البلاغي عند أصحاب الاتجاه الأول في مرحلة تالية (مرحلة التنظير البلاغي).

إنّ ما يهمننا من إيراد هذه الاتجاهات هو الاتجاه الذي ينتهي إليه الفراء، والسّمات البلاغية التي ميّزته، حيث كان فيه البحث البلاغي في بداياته الأولى، فجّل الملحوظات البلاغية قبل نزول القرآن الكريم، وفي العصر الإسلامي الأول، كانت خاضعة للذوق، مع الاستناد إلى بعض القواعد التي من شأنها أن تفضي إلى تحليل القول إن على مستوى الجودة أو الركاقة، "ولمّا اتسعت الفتوحات الإسلامية، واختلط العرب بغيرهم، وضعف الاعتماد على الذوق وحده؛ كان لا بدّ من أن تتعدّد القواعد، فوضع أبو عبيدة مجاز

1 البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الحادية عشرة، دت، ص368.

2 البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، محمد بركات حمدي، دار البشير، الأردن، الطبعة الأولى، 1996، ص19-20.

القرآن وهو إن كانت عنايته لغوية فلقد كانت له بعض الملحوظات البيانية¹، وعلى نهج أبي عبيدة، سار معاصره الفراء في كتابه معاني القرآن، فمثل عصرهما المرحلة الأولى لنشأة البلاغة العربيّة، وقد وصفها بعض الباحثين بأنها من بين المراحل التي استعصى ضبطها، وقلّ وضوحها، يقول حمادي صمود متحدثاً عنها "تعتبر هذه المرحلة أقل المراحل وضوحاً، وأكثرها استعصاء على الضبط الدقيق؛ لأنها تمثل طور نشأة العلم، وبداية التعرض لمسائله المختلفة"². وما يمكن استنتاجه ممّا سبق هو أنّ مباحث البلاغة في بداية هذا العصر قد سخرت لفهم النص القرآني، واستعين بها على تأويل مشكله.

ثانياً: كتاب معاني القرآن للفراء.

جاء في بعض الروايات أنّ الفراء تمثّى أن يضرب أبا عبيدة حين ألّف مجازه، ولعلّ هذا التمثي كان سبباً للفراء؛ ليعيد النظر فيما ألّف أبو عبيدة، فسار على نهجه وألّف كتابه "معاني القرآن"، ممّا جعل بعض الدارسين يرون بأنّ معاني القرآن دراسة مكملّة لما جاء في مجاز أبي عبيدة، من الناحية اللغوية، والسبب في ذلك هو "أنّه يبحث في التراكيب والإعراب، والمجاز يبحث في الغريب والمجاز، وكلتا الدراستين متعلقتان بالأسلوب، واختلفت دراسة الفراء هنا عن دراسة أبي عبيدة"³؛ أي إنّ دراسة أبي عبيدة اقتصرّت على المفردة من جهة الاستعمال والوضع والبحث عن معناها الخفيّ، أمّا دراسة الفراء فتجاوزت المفردة إلى التركيب، وسمة الأسلوب تظهر في المفردة أولاً ثمّ في التركيب ثانياً، وحتى وإن اختلفت دراستهما فإنّ الغاية واحدة هي خدمة النص القرآني، والكشف عن وجوه إعجازه.

افتتح الفراء كتابه بمقدّمة قصيرة، ثمّ أعقبها بتفسير الآيات القرآنية مراعيًا الترتيب التنازلي لسور القرآن الكريم، "يشرح ما في الآيات من الغريب والإعراب والقراءات شروحا مختلفة، لغوية ونحوية وأخبارية وأدبية، وقد بيّن أسباب النزول، ثمّ يسند كلّما وجد إلى السند سبيلاً"⁴.

البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الرابعة، 1997، ص71.

التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمود، ص19.

أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، مكتبة الشباب، القاهرة، الطبعة الأولى، دت، ص50.

أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، ص50.

لم يقتصر الفراء في معانيه على شرح الغريب - كما فعل معاصره أبو عبيدة في مجازة -، بل كان يشرح ويفسّر غريب الألفاظ، ولم يغفل الحديث أيضا عن القراءات التي قد تحتملها آية من الآيات التي تعرّض لشرحها، فتجده "يصححها أو ينفيها أو يضعفها، ثم يفسرها تفسيرا نحويا، ويوجّه ما يحتاج منها إلى التوجيه النحوي أو اللغوي، ويأتي بالأمثلة والشواهد ثم يدرج المسألة جميعا تحت قاعدة عامة"¹، وأمّا فيما يخصّ تفسير الغريب في كتاب المعاني فإنّ الفراء يتبع طريقة واحدة - كالتي اتّبعتها أبو عبيدة -، وهي أن يشرح الآية بالآية، ثمّ بالحديث إن كان في معناها، ثم يردف ذلك بشواهد من كلام العرب سواء من الشعر أو النثر (حكم وأمثال وأقوال مأثورة)، وإنّ أتى على أسباب النزول في موضع من المواضع، فإنّه يذكر السند عن أئمة المفسرين والصحابة والتابعين. وقد غلبت على الكتاب سمة النقل بنوعيه - المباشر وغير المباشر -، وإن كان الفراء قد أكثر من النقل المباشر، فهو ينقل عن أئمة التفسير (التفسير المأثور) والصحابة، من أمثال علي بن أبي طالب وابن عباس والحسن البصري - رضي الله عنهم -، وكثيرا ما يختم كلامه بعبارات "وجاء في التفسير كذا، وبذلك جاء التفسير، وذكر المفسرون"، ومع هذا وجدنا الفراء مجتهدا في كثير من مواطن مؤلفه، "إذ إنّ كثيرا ما يخرج على جماعة المفسرين واللغويين، ويعتمد على رأيه الشخصي، الذي توصل إليه بمداولة كلام العرب وسننهم وطرقهم في التعبير"²، وقد تأتّى له ذلك بفضل سعة اطلاعه على علوم العربية.

أمّا بالنسبة لمنهج الفراء في دراسة نظم القرآن وخاصة على مستوى البنية الإيقاعية، فقد رأى عبد الفتاح لاشين أنّ منهجه أفضل من منهج أبي عبيدة، يقول "وترجّح كفة الفراء على أبي عبيدة ببحثه الناحية الموسيقية لنظم القرآن؛ ممّا يجعل له أثرا موسيقيا فعّالا في النفوس، وذلك لما في النسق الصوتي والترابط بين الكلام، وانسجام النظم وتوافق الفواصل في أواخر الآيات، فهو في قوله تعالى "وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ"³، لا يوافق على التفسير الحرفي اللغوي للجنتين بمعنى البستانين، بل يرى أنّ هذه التثنية

¹ أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، ص 51.

² أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، ص 53.

³ سورة الرحمان، الآية 46.

بمعنى الأفراد، وهو ما عدل إليه القرآن مراعاة للنظم، كما يراعى ذلك في الشعر لمراعاة الوزن والقافية"¹.

ثالثاً: البحث البلاغي في كتاب معاني القرآن.

إن غلب على كتاب الفراء المباحث اللغوية والنحوية، فإننا لا نعدم فيه أثراً للمباحث البلاغية؛ ندب فيه الفراء نفسه ليقف على فهم أدبي لتعبير أو صورة بيانية، فقد عني فيه " بشرح أي الذكر الحكيم شرحاً بسط فيه الكلام في التراكيب وتأويل العبارات، وتحديث فيه عن التقديم في الألفاظ والتأخير، والإيجاز والإطناب والمعاني التي تخرج إليها بعض الأدوات كأداة الاستفهام، كما تحدث أو قل أشار إلى بعض الصور البيانية من مثل التشبيه والكناية والاستعارة"². وما يؤكد ذلك ما ذكره فضل حسن عباس، متحدثاً عن كتاب الفراء، إذ قال " لا نعدم الملحوظات البلاغية في كتابه هذا (يقصد معاني القرآن)، كالتقديم والتأخير، وغيرهما من مباحث علم المعاني، كما أشار إلى بعض مباحث علم البيان، كالتشبيه، والكناية وغيرهما"³، ولا شك في ذلك فلقد " كانت مسائل البلاغة مفرقة في كتب السابقين من المفسرين، وخاصة كتابي مجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للفراء، وهذان الكتابان هما من اللبئات الأولى في بناء صرح البلاغة العربية، والنواة الطيبة التي أثمرت دراسات مفصلة، وأبحاثاً واسعة في كتب اللاحقين من المشتغلين بفن البلاغة حتى وصلت إلى دور النضوج والكمال"⁴.

رابعاً: المصطلحات البلاغية في كتاب معاني القرآن.

بعد استقرائي لمعاني القرآن وقفت على كثير من المباحث البلاغية فيه، منها ما يدخل ضمن علم البيان ومنها ما يدخل ضمن علم البديع، ومنها ما يدخل ضمن علم المعاني. وهي:

1. المعاني في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، مصر، دط، 2003، ص 19.
2. البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص 29.
3. البلاغة المفترى عليها، فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الثانية، 1999، ص 116.
4. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص 43.

الإيجاز: ذكره الفراء بهذا المصطلح في فاتحة كتابه، ورأى أنه من أساليب العرب، تلجأ إليه للتخفيف، شرط أن يكون السامع على علم بما حذف من الكلام حتى يقف على معناه، يقول "لأنّ من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه"¹، ويتحقّق الإيجاز في الكلام بالحذف، وقد سمّا الفراء بعدّة مسميات منها: الترك، والإسقاط²، والإضمار³.

وقد أكثر الفراء الحديث عنه في مواطن عديدة في كتابه، ومنها ما ذكره في تفسير قوله تعالى "فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ"⁴، يقول " فافعل، مضمرة، بذلك جاء التفسير، وذلك معناه، وإنما تفعله العرب في كلّ موضع يعرف فيه معنى الجواب، ألا ترى أنك تقول للرجل: إن استطعت أن تتصدق، إن رأيت أن تقوم معناه، بترك الجواب، لمعرفتك بمعرفته به، فإذا جاء ما لا يعرف جوابه إلاّ بظهوره أظهرته؛ كقولك للرجل: إن تقم تصب خيرا، لا بدّ في هذا من جواب؛ لأنّ معناه لا يعرف إذا طرح"⁵، فاستدل على الحذف في أسلوب القرآن بوجود الحذف في كلام العرب، واشترط في ذلك علم السامع بما حذف والّا امتنع، "لأنّ الحاجة إلى الإيجاز أشدّ في الكلام إذا كان معلوما للمخاطب، ولا يؤدي إلى خلل أو لبس في الكلام"⁶.

ومن ذلك أيضا ما جاء في تفسيره لقوله تعالى "خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"⁷، يقول " انقطع معنى الختم عند قوله "وعلى سمعهم"، ورفعت الغشاوة بـ"على"، ولو نصبتهما بإضمار وجعل لكان صوابا، وزعم المفضل أنّ عاصم بن أبي النجود كان ينصبها، على مثل قوله في الجاثية "أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً"⁸، ومعناهما واحد، والله أعلم، وإنما يحسن الإضمار في الكلام الذي يجتمع

معاني القرآن، الفراء، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1983، ج1، ص2.

ينظر: معاني القرآن، ج1، ص228.

ينظر: معاني القرآن، ج1، ص425.

سورة الأنعام، الآية 35.

معاني القرآن، ج1، ص331.

أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، دط، 1998، ص136.

سورة البقرة، الآية 7.

سورة الجاثية، الآية 23.

ويدلّ أوله على آخره، كقولك: قد أصاب فلان المال، فبنى الدور والعبيد والإماء واللباس الحسن، فقد ترى البناء لا يقع على العبيد والإماء ولا على الدواب، ولا على الثياب، ولكنّه من صفات اليسار، فحسن الإضممار لما عرف...وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم¹، ويقصد بذلك الحذف، وعلى الرغم ممّا ذكره الفراء عن الحذف وما يتعلّق به في كتابه، إلّا أنّ بعض الدارسين قال "ليس للفراء في باب الحذف أصالة تذكر عند التحقيق، وإنّما اتبع الطريقة السائدة في هذه الحقبة من الزمن حيث كان الحذف لا يدلّ على أكثر من الاختصار والإيجاز"²، ولعلّه أراد من الفراء التعمّق في هذا الباب حتّى يقف على الأسرار البلاغية له، ويمكن أنّ نفسّر ذلك على وجهين: الأول أن يكون العربيّ في تلك الفترة على دراية تامة بأغراض الإيجاز وما يترتب عليه من حذف فلا حاجة للفراء أن يتوسّع فيه، والثاني: أن تكون المباحث البلاغية في بدايات نشأتها، ممّا صبغ البحث البلاغي في تلك الفترة بهذه السّمة.

التقديم والتأخير: تحدّث الفراء عن التقديم والتأخير في كتابه، لكنّه لم يصطلح عليه بهذا المصطلح، بل سمّاه "المقدّم والمؤخر" ولعلّه قصد ما يقدم من الألفاظ وما يؤخر لا الظاهرة البلاغية في حدّ ذاتها، وما ميّز حديثه عن التقديم والتأخير – على الرغم من كثرة ذكره له -، أنّه لم يكشف عن الأسرار البلاغية الكامنة وراءه، واكتفى ببيان أنّ في الآية تقديمًا وتأخيرًا دون تعمّق في تحليل الصورة البيانية، وقد فسّر ذلك بعض الباحثين " أنّ الفراء قد تبع أبا عبيدة في هذه النظرة الجامدة الخالية من كل إدراك لحقيقة التقديم والتأخير"³، وربما يرجع ذلك إلى الحرج الذي وجده الفراء وقبله أبو عبيدة حين تعاملهما مع النص القرآني هذا من جهة، ومن جهة أخرى قلة المصادر المتكّأ عليها لديهما، إن لم نقل ندرتهما، يستثنى من ذلك أقوال شيوخهما أو ممّن أخذوا عنهم، فذلك لا يشكّل مادة غزيرة تكفي لمعالجة المسائل البلاغية كما يجب، خاصة وأنّ مؤلفيهما يعدّان من بواكير هذا الفن (معاني القرآن).

ومن حديثه عن التقديم والتأخير ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى " حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ"⁴، يقال: إنّه مقدّم ومؤخر؛ معناه: حتّى إذا تنازعتم في الأمر فشلتُم، والواو

1. معاني القرآن، ج 1، ص 14.

2. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص 137.

3. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص 139.

4. سورة آل عمران، الآية 152.

معناها السقوط¹، أي: الواو زائدة، فعبر عن الزيادة بالسقوط، ولم يزد على ذكر اللفظ المقدم والمؤخر شيئا، سوى أنه ذكر أصل الكلام.

ومن ذلك أيضا ما ذكره في تفسير قوله تعالى "كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا"²، إذ قال "كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا مَقْدَمٌ وَمُؤَخَّرٌ، ومعناه يسألونك عنها كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا، ويقال في التفسير كَأَنَّكَ حَفِيٌّ أَي كَأَنَّكَ عَالِمٌ بِهَا"³. فاكتمى في هذا الموضع بالإشارة إلى أصل الكلام فقط.

وقال في تفسير قوله تعالى "فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"⁴، "معناه: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، هذا معناه، ولكنه آخر ومعناه التقديم - والله أعلم -؛ لأنه إنما أراد: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ"⁵، ذكر أصل الكلام وما فيه من تقديم وتأخير، بلا ذكر لأسبابه أو غايته.

ومن ذلك، ما جاء في تفسيره لقوله تعالى "إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتَوْفِيكَ وَرَأَيْكَ إِيَّايَ وَمُطَهِّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا"⁶، يقول "إِنَّ هَذَا مَقْدَمٌ وَمُؤَخَّرٌ، والمعنى فيه إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا"⁷، فأشار إلى المقدم (متوفيك) وإلى المؤخر (رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا)، مع ردّ الكلام إلى أصله، دون تحليل له، والكشف عن المعاني المتوخاة منه.

ومن ذلك أيضا ما ذكره معلقا على قراءة عبد الله "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار"⁸، فهذا شاهد لمن أضاف والمعنى في تقدّم القلب وتأخره واحد والله أعلم، قال: سمعت بعض العرب يرجل شعره يوم كل جمعة، يريد كل يوم جمعة والمعنى واحد"⁹، فالتمس للتقديم والتأخير الواقع في قراءة عبد الله وجهها في العربية واستدل على ذلك من منثور كلام العرب.

معاني القرآن، ج1، ص283.

سورة الأعراف، الآية 187.

معاني القرآن، ج1، ص399.

سورة التوبة، الآية 55.

معاني القرآن، ج1، ص442.

سورة آل عمران، الآية 55.

معاني القرآن، ج1، ص219.

⁸ والآية في المصحف "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ"

معاني القرآن، ج3، ص9.

يتبين ممّا تقدّم أنّ الفراء لم يشر إلى أية نكتة بلاغية أو سرّ بلاغي للتقديم والتأخير، في المواطن التي تعرّض فيها للحديث عنه، بل وجدناه في كلّ مرة يذكر أصل الكلام مع الإشارة إلى اللفظ المقدم والمؤخر، فكأنّما نظرته للتقديم والتأخير انحصرت في وضع كلمة موضع الأخرى؛ أي: تبادل المواضع بين الكلمات في التركيب، وليست تلك حقيقة التقديم والتأخير، والتي سيكشف عنها البلاغيون من بعده، ونخصّ بالذكر العالم الجليل عبد القاهر الجرجاني في كتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

التشبيه: اصطلاح عليه الفراء بهذا المصطلح، وتوسّع في الحديث عنه بمناسبة آيات قرآنية عرض لها في كتابه، ولكنّ أسبقية الفراء لطرق مسألة التشبيه في التراث مقارنة بمعاصره أبي عبيدة، خلّفت مواقف متباينة، فيعتبر محمد سلام أنّ محاولة الفراء في فهم التشبيه محاولة "جديدة وخطوة متقدّمة عن فهم أبي عبيدة له، وهو الذي لم يشر إلى التشبيه غير إشارات عابرة باعتباره مجازاً، ولم يفصّل فيه تفصيل الفراء عن فهم ودراية"¹، ويدافع حمادي صمود عن أبي عبيدة قائلاً: "تعتبر مساهمة أبي عبيدة في مسألة التشبيه، أهمّ ما وصلنا عن هذه الفترة، رغم ما نلاحظ في الدراسات اليوم، من غبن لحقه وتنويه بما قام به الفراء على حسابه، والسبب أنّهم وقفوا نظرهم على مؤلفه مجاز القرآن، في حين أنّ أهمّ ما له، في الموضوع ورد في مؤلفه الأدبي الخطير النقائض بين جرير والفرزدق"²، ويدعم عبد القادر حسين رأي حمادي صمود فيقول: "إنّ الفراء حين تناول التشبيه، لم يكن إدراكه له أكثر اتّساعاً من إدراك أبي عبيدة بحال من الأحوال، بل نستطيع أن نقول إنّ أبا عبيدة كان حديثه عن التشبيه أوضح بكثير من الفراء، حقّاً إنّ أبا عبيدة في مجاز القرآن كان يكتفي أحياناً بالقول هذا مجاز المثل والتشبيه، ولكنّه في النقائض بين جرير والفرزدق، يذكر طرفي التشبيه ووجه الشبه"³، فالخلاف الواقع بين الدارسين حول أيّ منهما توسّع في فهم التشبيه، أهو الفراء أم أبو عبيدة، ونحن إذا التزمنا بمسار البحث (قصر البحث على كتب المعاني) فإنّ الفراء هو من توسّع في دراسة التشبيه، لأنّ أبا عبيدة تطرق إليه في كتاب آخر (النقائض بين جرير والفرزدق)، لا في مجاز القرآن، وأمّا الدارسون فقد بنوا رأيهم على هذا الأساس.

أثر القرآن في تطور النقد العربيّ إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، ص 57.

التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمود، ص 124.

أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص 154.

لا يهّمنا الخلاف بقدر ما يهّمنا مصطلح التشبيه عند الفراء وكيف تناوله، وفيما يلي بعض المواضع التي تعرّض فيها الفراء للحديث عن التشبيه:

ما جاء في تفسيره لقوله تعالى "مَوْجٌ كَالظُّلَلِ"¹، يقول "فشبهه بالظلل، والموج واحد لأنّ الموج يركب بعضه بعضا، ويأتي شيئا بعد شيء، فقال كالظلل يعني السحاب"²، فذكر طرفي التشبيه، المشبه (الموج) والمشبه به (الظل: السحاب).

وفي موضع آخر لا يقتصر على ذكر طرفي التشبيه، بل يورد وجه الشبه، قال في تفسير قوله تعالى "إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ"³، "إنّ فيه في العربيّة ثلاثة أوجه، أحدها: أن تشبه طلوعها في قبحه برؤوس الشياطين؛ لأنّها موصوفة بالقبح، وإن كانت لا ترى"⁴، فالمشبه هو طلع الشجرة، والمشبه به رؤوس الشياطين وإن كانت لا ترى، ووجه الشبه القبح.

ومن ذلك أيضا ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى "فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ"⁵، بعد أن رأى أنّ الوردية في الآية المراد بها الفرس، قائلا "فشبهه تلون السماء بتلون الوردية من الخيل، وشبهت الوردية في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه"⁶، تنبّه الفراء إلى أنّ في الآية تشبيعين: الأول تشبيه تلون السماء بتلون الوردية، والمشبه هو تلون السماء، والمشبه به هو الوردية، ووجه الشبه حال تشقق السماء كحال تفتح الوردية عبر مراحل مختلفة، والثاني تشبيه اختلاف ألوان الوردية باختلاف ألوان الدهن، فالمشبه هو اختلاف ألوان الوردية، والمشبه به اختلاف ألوان الدهن، ووجه الشبه الصفاء.

ووقف الفراء في أحد مواطن التشبيه في كتابه على ملحظ دقيق وهو أنّ التشبيه لا يشترط فيه التناسق بين طرفيه من حيث العدد إن كان القصد هو الفعل لا أعيان الرجال، جاء في تفسيره لقوله تعالى "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا"⁷، ما نصه "فإنّما

1. سورة لقمان، الآية 32.

2. معاني القرآن، ج 2، ص 230.

3. سورة الصافات، الآية 85.

4. معاني القرآن، ج 2، ص 387.

5. سورة الرحمن، الآية 37.

6. معاني القرآن، ج 3، ص 117.

7. سورة البقرة، الآية 17.

ضرب المثل -والله أعلم- للفعل لا لأعيان الرجال، وإِنَّمَا هو مثل للنفاق؛ فقال: مثلهم كمثل الذي استوقد نارا، ولم يقل الذين استوقدوا، وهو كما قال الله " تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغَسِّقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ "1، وقوله تعالى " مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاحِدَةٍ "2، فالمعنى -والله أعلم- إلا كبعث نفس واحدة، ولو كان التشبيه للرجال لكان مجموعا كما قال " كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسْتَدَّةٌ "3، أراد القيم والأجسام، وقال " أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ "4، فكان مجموعا إذ أراد تشبيه أعيان الرجال؛ فأجر الكلام على هذا، وإن جاءك تشبيه جمع الرجال موحدًا في شعر فأجزه، وإن جاءك التشبيه للواحد مجموعا في شعر فهو أيضا يراد به الفعل فأجزه؛ كقولك: ما فعلك إلا كفعل الحمير، وما أفعالكم إلا كفعل الذئب، فابن على هذا، ثم تلقي الفعل فتقول: ما فعلك إلا كالحمير وكالذئب "5، فيظهر من القول اجتهاد الفراء في التفريق بين تشبيه الأشخاص وتشبيه الأحوال، وبيان حال طرفيه في كلٍّ منهما، " فالطرفان لا بدَّ فيهما من التناسق والمماثلة إذا كان مناط التشبيه والقصد منه الأعيان والأعداد، ولا يشترط فيه هذا التناسق من حيث الأفراد والجمع إذا لم يكن المقصود العدد من حيث هو عدد، إِنَّمَا المقصود هو المعنى والمغزى "6، ولعلَّ إبراز هذا الملحظ الدقيق في التشبيه قد تفرَّد الفراء بالتنبيه عليه؛ لأنَّه " لم يتردد في كتب البلاغة، رغم أنَّ البلاغيين قد أحاطوا بالتشبيه من كافة أقطاره ولمسوا دقائقه صغیرها وكبیرها "7، فیدلَّ هذا على تفوُّق الفراء في كشف جوانب التشبيه، على الرغم من أنَّ موضوع كتابه لم يكن للبلاغة في المقام الأول، بل كان للتفسير والقراءات والإعراب.

واستخدم الفراء مصطلحا آخر دالا به على التشبيه وهو المثل، قال في تفسيره لقوله تعالى " وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ "8، " أضاف المثل إلى الذين كفروا، ثمَّ

1. سورة الأحزاب، الآية 19.

2. سورة لقمان، الآية 28.

3. سورة المنافقون، الآية 4.

4. سورة الحاقة، الآية 7.

5. معاني القرآن، ج 1، ص 15.

6. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص 157.

7. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص 157.

8. سورة البقرة، الآية 171.

شبههم بالراعي، ولم يقل كالغنم، والمعنى -والله أعلم- مثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فلو قال لها: ارعي أو اشربي، لم تدر ما يقول لها، فكذلك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وإنذار الرسول، فأضيف التشبيه إلى الراعي، والمعنى -والله أعلم- في المرعي، وهو ظاهر في كلام العرب أن يقولوا: فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى: كخوفه الأسد؛ لأنَّ الأسد هو المعروف بأنَّه المخوف... وفيها معنى آخر تضيف المثل إلى الذين كفروا وإضافته في المعنى إلى الوعظ: كقولك: مثل وعظ الذين كفروا وواعظهم كمثل الناق؛ كما تقول: إذا لقيت فلانا فسلم عليه تسليم الأمير، وإنما تريد به: كما تسلم على الأمير¹، ذهب الفراء في تحليله لهذا التشبيه إلى أبعد صورة ممكنة؛ لأنَّ في هذا التشبيه غرابة خاصة ما تعلق بوجه الشبه فيه، فبيّن الاحتمالات الممكنة: ليزيل " الغموض المترتب عن خروج الكلام عن النسق العادي بما وقع فيه من حذف أدى إلى ارتباط المشبه في ظاهر اللفظ بغير المشبه به، بل نقيضه) حيث وضع الراعي موضع البهائم)، وهذا التحويل من الإجراءات الممكنة في اللغة الخاصة، والعادي هو الموازنة بين الأطراف²، أي: الواعظ يقابل الراعي، والذين كفروا تقابل البهائم، كمرحلة أولى، ثم الذين كفروا في مقابل الراعي (على حدّ تعبير الفراء) وهنا لا بدّ من تقدير محذوف (واعظ الذين كفروا وراعي البهائم)، ثم الكفار في مقابل البهائم و الواعظ في مقابل الناق، في مرحلة تالية.

أمّا عن هذين المصطلحين (التشبيه والمثل)، فهما من الاصطلاحات التي ظهرت في " الدراسات القرآنية دالة على صور بيانية، لكنّها لا تزال عند الفراء تطلق في حدود المعنى اللغوي، وإن كانت تشير إلى المعنى البلاغي³، ولا غرابة في ذلك كون المؤلف كانت غايته الوقوف على فهم مقاصد التنزيل انطلاقاً من تفسير بعض آياته وإعرابها، وبيان بعض أوجه القراءات، معتمداً على معارفه اللغوية.

الاستعارة: لم يذكرها الفراء بهذا المصطلح، ولم يسمّها تسمية أخرى، ولكنّه مع ذلك تعرّض للحديث عنها في مواطن من كتابه دالاً بها على الاصطلاح البلاغي؛ لذلك عدّ الفراء " أول من أدرك الاستعارة بمعناها الاصطلاحي المعروف، وإن لم ينص على ذلك، ولم

معاني القرآن، ج 1، ص 99.

البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، 2010، ص 113.

أثر القرآن في تطور النقد العربيّ إلى آخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، ص 56.

يطلق عليها هذا الاصطلاح¹، فهي محاولة جادة منه لتهيئة أرضية معرفية؛ سينشأ فيها علم البلاغة العربي.

إن كان الفراء أعمق تحليلاً للصور التشبيهية – كما تقدّم-، فإنّه بدا أكثر تحفظاً في المستوى الاستعاري من أبي عبيدة² في كتابه المجاز، ولعلّ ذلك راجع إلى التحرج الديني من قبله حين أقدم على تفسير بعض الآيات القرآنية، خاصة ما تعلّق منها بالذات الإلهية.

ومن حديثه عن الاستعارة، ما ذكره في تفسير قوله تعالى "رَبِّحْتَ تِجَارَتَهُمْ"³، إذ قال "ربما قال القائل: كيف تربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر، وذلك من كلام العرب: ربح بيعك وخسر بيعك، فحسن القول بذلك؛ لأنّ الربح والخسران إنّما يكونان في التجارة، فعلم معناه، ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم، ومثله من كتاب الله "فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ"⁴، وإنّما العزيمة للرجال، ولا يجوز الضمير إلا في مثل هذا، فلو قال القائل: قد خسر عبدك؛ لم يجز ذلك، إن كنت تريد أن تجعل العبد تجارة يربح فيه أو يوضع، لأنّه قد يكون العبد تاجراً فيربح أو يوضع، فلا يعلم معناه إذا ربح هو من معناه إذا كان متجوراً فيه، فلو قال قائل: قد ربحت دراهمك ودنانيرك، وخسر برك ورقيقك؛ كان جائزاً لدلالة بعضه على بعض"⁵، يظهر من هذا القول أنّ الفراء يصرّ على دفع الالتباس حتّى تحصل الاستعارة، فيدخل الكلام في دائرة المجاز، وإنّما يكون ذلك بوجود القرينة التي تصرف الكلام عن ظاهره.

ومن ذلك ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى "وَأَنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ"⁶، يقول "بطريق لهم يمرون عليها في أسفارهم، فجعل الطريق إماماً لأنّه يؤم ويتّبع"⁷، فحدّد المشبه (الطريق) المحذوف، والمشبه به (إمام)، ووجه الشبه الإتيان لكلّهما.

1. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص 160.

2. ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، ص 113.

3. سورة البقرة، الآية 16.

4. سورة محمد، الآية 21.

5. معاني القرآن، ج 1، ص 15.

6. سورة الحجر، الآية 79.

7. معاني القرآن، ج 2، ص 91.

ومن ذلك أيضا، ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى " يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ " ¹، إذ قال " كيف يريد الجدار أن ينقض، وذلك من كلام العرب أن يقولوا: الجدار يريد أن يسقط، ومثله قوله تعالى "وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ" ²، والغضب لا يسكت؛ إنما يسكت صاحبه، وإنما معناه: سكن، وقوله "فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ" ³، وإنما يعزم الأمر أهله، وقد قال الشاعر:

إِنْ دَهْرًا يَلْفُ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزِمَانٍ يَهْمُ بِالْإِحْسَانِ
وقال الآخر:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى صَبْرًا جَمِيلًا فَكَلَانَا مُبْتَلَى

والجمل لم يشك، إنما تكلم به على أنه لو نطق لقال ذلك ⁴، يبين الفراء من خلال حديثه عن الاستعارات الواردة في الآيات القرآنية السابقة أو الأشعار، سواء كانت تصريحية أو مكنية، " كيف تكون أساليب القرآن حين تخرج عن أصل وضعها كما خرجت أساليب الشعر عن أصل الوضع، فأعطت الكلام صورة طريفة رائعة جعلت من هذه الجمادات أو المعاني أو الحيوانات إنسانا له إرادة، أو عزم أو شكاية، ولا شك أن الفراء قد وقَّ في إبراز هذه الصورة توفيقا كبيرا لم يصل إلى أطرافه سلفه أبو عبيدة " ⁵، فهو يبرز في بعض الآيات وجه الشبه بين طرفي التشبيه الذي حذف أحدهما وبقي الآخر، وكأنَّ مناط الاستعارة عنده قائم على التشبيه الذي حذف أحد طرفيه، و" ما فهمه الفراء من أمر الاستعارة لم يخرج عن مفهوم البلاغيين بعده لفترة طويلة " ⁶، فما زاده البلاغيون بعده يدخل في إطار التنظير لها، وتحديد أنواعها وأقسامها، ويمكن القول إنَّ الفراء أبرز الجانب التطبيقي في الاستعارة، وعدل عن الجانب النظري؛ لأنَّ منهجه كان يقتضي الكشف عن أساليب القرآن في التعبير، وموافقتها لأساليب العرب.

1. سورة الكهف، الآية 77.

2. سورة الأعراف، الآية 154.

3. سورة محمد، الآية 21.

4. معاني القرآن، ج2، ص156.

5. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص160.

6. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص160.

لما تعرض الفراء للاستعارة، لم يغفل الحديث عن الاستعارة التهكمية – وإن لم يصطلح عليها بهذه التسمية -، ومن ذلك ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى " فَأَنَّا بَكْمُ غَمًّا بِغَمٍّ "1، يقول " الإثابة هاهنا في معنى عقاب ولكنته كما قال الشاعر:

أَخَافُ زِيَادًا أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُودًا أَوْ مُحَدَّرَجَةً سُمْرًا

وقد يقول الرجل الذي اجترم إليك: لئن أتيتني لأثيبنك ثوابك، معناه: لأعاقبنك، وربما أنكره من لا يعرف مذاهب العربيّة، وقد قال الله تبارك وتعالى " فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ "2، والبشارة إنما تكون في الخير، فقد قيل ذاك في الشر "3، يظهر من قول الفراء تضاد بين المعاني (الإثابة بمعنى العقاب، القيود والسياط " أداهم محدرجة" بمعنى العطاء، والبشارة بمعنى الإنذار يستعمل في الشر)، وهذا التضاد " قصد إليه القرآن قصدا ليعطي إحساسا بالتهكم اللاذع المرير، ويقدم أبعادا لتلك الصورة الساخرة حتى يضع من شأن المخاطبين بذلك الأسلوب العجيب "4، وقد حاول الفراء الكشف عنها (الصورة الساخرة)، بأسلوب سلس ولغة راقية، وألفاظ موجزة، واستدلالات من كلام العرب (شعره ونثره).

يظهر ممّا تقدّم بأن الفراء قد أسهم بشكل واضح في بيان الاستعارة وتحديد معالمها، والكشف عن كثير من أسرارها البلاغية بوضوح وثقة، دون أن يصطلح عليها ولا على أنواعها، حتى عدّ عند بعض الدارسين " مبتكرا لهذا الأسلوب البلاغي الذي يحتل معظم صفحات الحديث عن المجاز وأنواعه في كتب البلاغة "5، ولا شك في ذلك فقد شكّلت المباحث البلاغية لديه نواة البحث البلاغي عند الخالفين، واعتبر حديثه عن الاستعارة " طفرة كبيرة، وقفزة رائعة للوصول بها إلى غايتها التي تعرفها اليوم، وأتته تفتن إلى قيامها على التشبيه، وفهم معنى القرينة، وانتبه إلى نوع منها دقيق هو الاستعارة التهكمية "6؛ لأنه تميّز في معالجة صورها ببعد نظر وعمق تفكير.

1. سورة آل عمران، الآية 153.

2. سورة آل عمران، الآية 21.

3. معاني القرآن، ج1، ص239.

4. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص161.

5. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص161.

6. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص155.

الكناية: تعرّض الفراء للحديث عن الكناية في مواطن كثيرة من كتابه، وهو وإن اصطاح عليها بهذا المصطلح فقد أطلقها دالا بها على معنيين: الأول: الضمير، والثاني: الاصطلاح البلاغي.

من أمثلة إطلاقها بالمعنى الأول (الضمير)، ما ذكره في قوله تعالى " وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ¹، حيث قال " إن شئت جعلت هو كناية عن الإخراج ²، وفي قوله تعالى " وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ³، " هو كناية عن البخل ⁴، وقصد بها الضمير المنفصل (هو) في الآيتين.

ومن ذلك أيضا ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى " فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ⁵، " الهاء كناية عن القرآن؛ فأتوا بسورة من مثل القرآن ⁶، وقصد بها في هذا الموضع الضمير المتصل (به). ومن خلال استقراءنا لكتابه وجدنا الفراء " يسير على هذا النمط في كثير من المواضع، ويستشهد بأمثلة لا تكاد تحصى من القرآن الكريم وكلها تدلّ على أنّ الكناية عنده تشمل إمّا الضمير المذكور في الكلام أو الضمير المستتر ⁷، وهذا الفهم لمصطلح الكناية يرتبط ارتباطا وثيقا بمباحث النحو؛ لأنّ الكوفيين – والفراء منهم- اصطالحوا على الضمير بالكناية.

لم يقتصر الفراء على إطلاق الكناية بمعنى الضمير، بل دلّ بهذا المصطلح على الاصطلاح البلاغي لها (اللزوم بين شيئين)، ومن أمثلة ذلك، ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى " فَأَتُوا حَرَّتْكُمْ أَنَّنِي شَيْئُكُمْ ⁸، " يقول آيت الفرج من حيث شئت ⁹، وقوله تعالى " شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ¹⁰، " الجلد هاهنا - والله أعلم- الذّكر، وهو

¹ سورة البقرة، الآية 85.

² معاني القرآن، ج 1، ص 50.

³ سورة آل عمران، الآية 180.

⁴ معاني القرآن، ج 1، ص 104.

⁵ سورة البقرة، الآية 23.

⁶ معاني القرآن، ج 1، ص 19.

⁷ أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 162.

⁸ سورة البقرة، الآية 223.

⁹ معاني القرآن، ج 1، ص 144.

¹⁰ سورة فصلت، الآية 20.

ما كَتَى عنه كما قال " وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُمْ سِرًّا " ¹ ، يريد النكاح، وكما قال "أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ" ²، والغائط الصحراء، والمراد من ذلك أو قضى أحد منكم حاجة ³، فيظهر اللزوم بين الغائط وقضاء الحاجة، وبين السر والنكاح، وما إلى ذلك من أوجه اللزوم بين الشئيين في ما وقع من كنايات في القرآن الكريم، ولكنّ الفراء لم يأت على ذكرها جميعا، حتّى تلك التي تبدو فيه الكنايات واضحة جليّة، لذلك لا يمكن أن نعمّم القول بأنّ الفراء فصلّ الحديث عن الكناية بمفهومها البلاغي، "وعليّنا أن نتحفّظ تجاهه، ونقف إزاءه موقف الحذر حتّى لا نقع في التعميمات التي تتجاف مع الفحص العلمي الدقيق" ⁴، فالاستقراء الشامل لكتاب معاني القرآن هو الكفيل باستنتاج حكم من الأحكام وإسقاطه على معالجة الفراء لقضية من القضايا البلاغية.

المجاز: تحدّث عن المجاز في مواطن كثيرة في كتابه، واصطلاح عليه بهذه التسمية، وسماه أيضا الإجازة، واستخدمه بمعنيين: الأول منهما دلّ به على المعنى اللغوي – وهو المعنى الغالب في الكتاب - ، والثاني دلّ به على الاصطلاح البلاغي – ولكن في مواضع قليلة من كتابه-، ومن تلك المواضع ما ذكره في تفسير قوله تعالى "فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى" ⁵، إذ قال " فكيف قال: فسنيسرّه للعسرى ، فهل في العسرى تيسير؟ فيقال في هذا في إجازته بمنزلة قول الله تبارك وتعالى "وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" ⁶، والبشارة في الأصل على المفرح واليسار، فإذا جمعت في كلامين: هذا خير، وهذا شرّ جاز التيسير فيهما جميعا ⁷، فخرّج المعنيين المتضادين (العسرى والتيسير)، على ما جاء في القرآن من المعاني المتضادة، ومنها هذه الآية التي استدل بها (البشارة والعذاب).

المجاز العقلي: تعرّض الفراء للحديث عنه في كتابه، لكنّه لم يصطلح عليه بهذه التسمية، وقد بيّنه ومثّل له من القرآن وكلام العرب، يقول حمادي صمود في هذا الشأن " فمن المفاهيم المتبلورة رغم غياب المصطلح المناسب، النوع الذي أطلق عليه المتأخرون المجاز

1. سورة البقرة، الآية 235.

2. سورة المائدة، الآية 6.

3. معاني القرآن، ج3، ص16.

4. أثر النحاة في البحث البلاغي، ص163.

5. سورة الليل، الآية 10.

6. سورة التوبة، الآية 3.

7. معاني القرآن، ج3، ص271.

العقلي أو المجاز الحكمي، فلقد اكتفوا بإدراجه ضمن مبدأ التوسع والاختصار، وضربوا له الأمثلة من القرآن والشعر ولغة العرب¹، ومن أمثلته عند الفراء ما جاء في تفسيره لقوله تعالى " لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَمَ " ²، " كَأَنَّكَ قَلْتَ: لَا مَعْصُومَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...ألا ترى قوله " مِنْ مَاءٍ ذَافِقٍ " ³، فمعناه والله أعلم: مدفوق، وقوله " فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ " ⁴، معناها مرضية، قال الشاعر:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

معناه: المكسو، تستدلّ على ذلك أنك تقول: رضيتُ هذه المعيشة، ولا تقول: رضيتُ، ودُفِقَ الماء، ولا تقول: دَفَقَ، وتقول: كُسي العريان، ولا تقول: كَسَا ⁵، فأنت ترى الفراء يفصل في هذا النوع من المجاز، ويبين المعاني الناشئة عن تغيير اسم المفعول باسم الفاعل؛ ليثبت أن أسلوب القرآن وافق أساليب العرب في التعبير.

الالتفات: تحدّث الفراء عنه، ولكنّه لم يصطلح عليه بهذه التسمية، " ولم يخرج في تناوله لها (ظاهرة الالتفات) عن ذلك النهج الذي سار عليه معاصره أبو عبيدة، غير أنّه لم يقدّم لها مصطلحا واحدا يحتويها ويلم اشتاتها " ⁶، فأبو عبيدة قدّم أوجه الالتفات الممكنة في المجازات التي ذكرها في مقدّمة كتابه، بينما الفراء تناول الظاهرة في مواضع متباينة في كتابه، ومن ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى " جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ " ⁷، إذ قال " يعني الفلك، فقال: جاءتْها وقد قال في أول الكلام " وجرين بهم "، ولم يقل: وجرت، وكلّ صواب، تقول: النساء قد ذهبت، وذهبن " ⁸، أي: إنّهُ وقع في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، وهذا منهجه في مواطن الالتفات في كتابه ⁹، يشير في كلّ مرة إلى

التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمود، ص 120.

سورة هود، الآية 43.

سورة الطارق، الآية 6.

سورة الحاقة، الآية 21.

معاني القرآن، ج 2، ص 16. وينظر أيضا أمثلة المجاز العقلي في: معاني القرآن ج 1 ص 108، ج 2، ص 15، ص 73، ص 363.

أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998، ص 9.

سورة يونس، الآية 22.

معاني القرآن، ج 1، ص 460.

ينظر على سبيل المثال: معاني القرآن، ج 1، ص 195، ج 3، ص 212.

الالتفات الواقع في الآية، ويستدل عليه بما جاء في كلام العرب شعره ونثره، ممّا يسوغ لنا القول إنّ نظرة الفراء للالتفات، لم تتجاوز مستوى الصحة إلى مستوى المزية والجمال الفني في تلك الأساليب¹؛ لأنّ غاية الالتفات خلق نوع من الإبداع في الكلام لتحقيق المتعة الفنية فيه.

الاستفهام: لم يغفل الفراء الحديث عن الاستفهام في كتابه، وتنبّه لخروجه عن معناه الحقيقي إلى المعنى المجازي، ومن معانيه المجازية التي أشار إليها الفراء: التعجب والتوبيخ، قال في تفسير قوله تعالى "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَانًا"²، "على وجه التعجب والتوبيخ؛ لا على الاستفهام المحض، أي ويحكم كيف تكفرون"³، والمعنى نفسه أثبتّه الفراء في تفسيره لقوله تعالى "فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ"⁴، وذكر معنى الأمر في تفسير قوله تعالى "وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ"⁵، حيث قال "وهو استفهام ومعناه: أمر"⁶، وهذا منهج الفراء في إيراد المعاني المجازية للاستفهام، حيث أثبت أنّ للاستفهام معنى التقرير، والإنكار، والتوبيخ، والأمر، والتهديد، وذلك انطلاقاً من السياق الذي يرد فيه، وكذا الأداة المستفهم بها.

المشاكلة: لم يصطلح عليها الفراء بهذا المصطلح، ولكنّه تعرّض للحديث عنها حين فسّر قوله تعالى "فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ"⁷، قال "أرأيت قوله "فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ"، أعدوان هو وقد أباحه الله لهم؟ قلنا: ليس بعدوان في المعنى، إنّما هو لفظ على مثل ما سبق قبله، ألا ترى أنّه قد قال "فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ"⁸، فالعدوان من المشركين في اللفظ ظلم في المعنى، والعدوان الذي أباحه الله وأمر به المسلمين إنّما هو قصاص، فلا يكون القصاص ظلماً، وإن كان لفظه واحد، ومثله قول الله تبارك وتعالى "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا"⁹، وليس من الله

¹ ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ص 9.

² سورة البقرة، الآية 28.

³ معاني القرآن، ج 1، ص 22.

⁴ سورة التكويد، الآية 26.

⁵ سورة آل عمران، الآية 20.

⁶ معاني القرآن، ج 1، ص 202.

⁷ سورة البقرة، الآية 193.

⁸ سورة البقرة، الآية 194.

⁹ سورة الشورى، الآية 40.

على مثل معناها من المسيء؛ لأنّها جزء¹، يبدو من خلال هذا القول أنّ الفراء قد فقه مفهوم المشكلة، ممّا جعله يبدع في بيان سرها البلاغي في كلّ موضع وقعت فيه المشكلة في الآيات التي فسّرها في كتابه²، فهو "لم يترك للمتأخرين شيئاً يضيفونه إليها، فقد كانت المشكلة ناضجة تمام النضج عند الفراء"³، رغم غياب المصطلح الدال على مفهومها لديه.

الفاصلة القرآنية: اصطلاح عليها الفراء بهذا الاسم، وسماها أيضا رؤوس الآيات، قال في تفسير قوله تعالى " مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ"⁴، "يريد وما قلاك، فألقيت الكاف، كما يقول: قد أعطيتك وأحسنك، ومعناه: أحسنت إليك، فتكتفي بالكاف الأولى من إعادة الأخرى، ولأنّ رؤوس الآيات بالياء، فاجتمع ذلك فيه"⁵، وقال في موضع آخر "وأنت تراه في رؤوس الآيات - لأنّها فصول - حسنا"⁶.

لقد لاحظ الفراء من خلال المواطن التي درس فيها الفواصل القرآنية⁷، أنّها تضيفي نسقا صوتيا، حاول أن يتتبعه، "ونراه في ملاحظاته التي أوردتها مدركا تماما لوزن القرآن، مدركا الغاية التي عمد إليها في التزام وزن بعينه، وهو الترابط بين الكلمات وانسجام النغم، وتوافق الفواصل في آخر الآيات، وإذ تسترعي انتباهه هذه الظاهرة، يحاول أن يضبطها ويقارنها بما عرف عند العرب من أوزان الشعر"⁸، وهو من خلال محاولته الموازنة بين الوزنين (وزن القرآن ووزن الشعر)، أراد أن يثبت أنّ للقرآن صفات تفرّد بها في هذا الشأن، كما تفرّد الشعر والكلام الموزون بصفات غير تلك التي اختصّ بها القرآن، ولعمله هذا كان الفراء "صاحب أصالة فنيّة في تذوق موسيقى الفواصل وملاحظتها عند رؤوس الآيات، ... ولم يكن في ذلك مقلّدا ولا تابعا، وإنّما كان رائدا في هذا الفن، وصاحب نظرة جديدة حملها العلماء من بعده ما بين معارض ومتابع"⁹، ولعلّ مرجع ذلك بعض

معاني القرآن، ج1، ص117.

ينظر مثلا: معاني القرآن، ج1، ص41، ص82، ص83.

أثر النحاة في البحث البلاغي، ص165.

سورة الضحى، الآية 3.

معاني القرآن، ج3، ص274.

معاني القرآن، ج1، ص44.

ينظر: معاني القرآن، ج1، ص70.

أثر القرآن في تطور النقد إلى أواخر القرن الرابع هجري، ص62.

أثر النحاة في البحث البلاغي، ص169.

التخريجات التي أوردها الفراء في كتابه لم يستسغها العلماء من بعده، فخلفت مواقف معارضة لما جاء به في هذا الشأن (الفاصلة القرآنية).

لا ينكر إلا جاحد مدى إسهام الفراء في البحث البلاغي العربي؛ لأنه قد تطرق إلى عدّة مباحث بلاغية، كاشفا عن بعض المصطلحات التي لم يبتدعها أحد قبله، مبيّنا بعض مفاهيمها، متفوقا على أبي عبيدة في شرح بعضها؛ لهذه الصفات وأخرى، كان كتابه معاني القرآن قبلة لغوية وبلاغية ونحوية وتفسيرية لمن جاء بعده، فانتفع به أيما انتفاع، وشكّلت آراؤه معينا لا ينضب لكلّ دارس بلاغيّ، يلجأ إليه كلّما دعت ضرورة البحث في بلاغة القرآن وإعجازه.

خاتمة:

خلص البحث إلى مجموعة من النتائج، وهي:

- اكتست بنية النص القرآني أهمية قصوى لدى علماء التراث العربيّ؛ ممّا جعل المباحث المتعلقة به – ومنها المباحث البلاغية - ماثلة في جلّ العلوم العربيّة التي اتخذت من القرآن الكريم موضوعا للدراسة؛ لفهم مقاصده ومراميه.
- لم تكن كتب المعاني ذا توجه بلاغي محض، بل كانت ذا طابع لغوي نظري في بعض المواضيع وتطبيقي في أخرى، همّها وغايتها توضيح المعنى وتفسير المقال، إذ اكتفت بالإشارة إلى الاستعمال دون تعمّق أو تحليل واف.
- جاء الجانب البلاغي في كتب المعاني جنيّيا، لذلك لم نقف منه على عدد معتبر من مصطلحات متبلورة في إطار دراسة نظرية مضبوطة سواء في حدودها أو مفاهيمها.
- تضمّن كتاب معاني القرآن بعض المصطلحات البلاغية، التي استقرت لدى البلاغيين فيما بعد، فمنها ما كتب له البقاء كما اصطلح عليه الفراء (بقي بنفس التسمية)، ومنها ما اندثر وحلّ محله مصطلح جديد، ومنه ما أضيفت عليه تقسيمات وتفريعات في فترات زمنية متعاقبة.

- على الرغم من أهمية النشاط البلاغي في أواخر القرن الثاني للهجرة، فقد بدأ مشّتتا على مستوى الضبط المصطلحي في كثير من الأحيان؛ لأنّ هذه الفترة هي التي مثّلت إرهاصات النشأة البلاغية، ودليل ذلك الفترة التي تليها، إذ كانت مرحلة التأسيس الفعلي للبلاغة العربيّة على يد الجاحظ بإجماع مؤرخي البلاغة.
- اتخذَ الفراء من المبحث البلاغي وسيلة للوصول إلى مقاصد الرسالة الدينية، فركّز على البيان بمعناه اللغوي الأصلي أو الوظيفة الإفهامية؛ ولم يبيّن سرّ تفوّق التعبير القرآني من خلال المقارنة التي أجراها بينه وبين أساليب العرب في كلامها؛ فكان ذلك سببا في بعض ما وجّه إليه من نقد خاصة ما تعلّق بقضية التعمق في المباحث البلاغية وتحليلها.